الرحمة في القرآن

(الطفل أنموذجًا)

إعداد:
د. عبدالرؤوف أحمد بني عيسى
أستاذ مساعد – كلية العلوم التربوية
قسم التربية الإسلامية
جامعة العلوم الإسلامية العالمية –الأردن

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد؛ فإن الرحمة خلق عظيم وصفة نبيلة، اتصف بها الله ﷻ، ونبيه ﷺ، والمؤمنون، وهي كذلك سمة بارزة في ديننا الإسلامي الحنيف. قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٤﴾ [الأنعام]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦].

وقد اهتم الإسلام بالرحمة في جميع المخلوقات، ومن بينها اهتمام الإسلام برحمة الطفل، والطفولة من حيث كونها نعمةً وهبةً ربانيةً، تحث المنعم عليه بها لأن يحمد الله سبحانه وتعالى ويشكره؛ لكونها فضلًا كبيرًا، ونلحظ ذلك في دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام حين جاءه الولد، قال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾ [إبراهيم]، وقوله تعالى: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الكهف:٤٦]. فالأطفال تشتاقهم النفوس، وتهفو إليهم القلوب، علت درجة ذلك الإنسان أو قلت، ويستوي في ذلك صفوة الله من خلقه، وهم الأنبياء والمرسلون، ومن عداهم من البشر أيا كانوا، بدليل قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن

لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران]. وطلب الأطفال تحقيقًا للأبوة المستمرة دعوة يتقرب بها الإنسان إلى ربه واهب الحياة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان].

كما أن رحمة القرآن بالطفل، إشارة واضحة إلى أن الإسلام لم يجعل تلك الرحمة، وصايا أخلاقية ومبادئ مثالية، متروك للأفراد أمر تجسيدها في الواقع، بحيث يمكن انتهاكها وتجاوزها خفية، وإنما ربى عليها، وأقام الوازع الداخلي لمراقبتها، ورتب الثواب الأخروي على التزامها والعقاب على انتهاكها، وعضد ذلك بالتشريعات الفقهية الملزمة.

وكان ذلك من رحمة الله ﷻ، حيث قال جل شأنه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ [مريم:٥٠]، وقوبلت هذه الهبة وتلك الرحمة بالحمد والثناء والشكر والدعاء؛ لأنها استجابة لمطلبٍ تهفو إليه النفس الإنسانية لأنسها به.

وقد جاء التوجيه كذلك إلى سيدنا زكريا عليه السلام بأن يكثر من الذكر والتسبيح بعد بشارته بالولد، قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران:٤١]، وهنا قرن بين البشارة بالولد والإكثار من الذكر والشكر لله ﷻ؛ لأن الولد من كبرى النعم على الوالد.

ويتضح من هذا الاقتران أن الذكر والشكر فيهما طلب منةٍ أخرى، وهي أن يبارك في الطفل، وهي رغبة أخرى، فكما أن نعمة الوجود للطفل قد تحققت، فإن نعمة البركة في وجوده مرجوة كذلك.

ونظرًا لعمق هذا الموضوع، وأثره في الناحية الاجتماعية والتربوية والنفسية، فقد اتجه القصد إلى البحث في رحمة القرآن بالطفل من الولادة حتى البلوغ، وتتبع عرض القرآن لهذا الجانب، والأخذ بما فقهه

المفسرون والعلماء من الآيات التي ذكر فيها الطفل وما يقاربه من المدلول، وقد استنبط الباحث من خلال تلك الآيات الكريمة ما قدره الله ﷻ له من الفوائد والتعليقات التي يرجو أن يكتب لها القبول والنفع.

وحسبما تقتضيه طبيعة البحث العلمي، فقد جاء هذا البحث مقسمًا إلى مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة، على النحو الآتي:

المقدمة:

المبحث الأول: أهمية الرحمة في القرآن الكريم، وفيه مطلبان، هما:

المطلب الأول: مفهوم الطفل والرحمة في القرآن الكريم.

المطلب الثاني: القرآن الكريم يدعو إلى الرحمة.

المبحث الثاني: الطفل في معرض الامتنان، وفيه ثلاثة مطالب، هي:

المطلب الأول: بيان كون الطفولة نعمةً تستحق الشكر.

المطلب الثاني: تحقيق إنسانية الطفل ومشهده في الوجود.

المطلب الثالث: احترام ذاتية الطفل وطموحاته.

المبحث الثالث: مظاهر الرحمة بالطفل في القرآن الكريم، وفيه أربعة مطالب، هي:

المطلب الأول: الرحمة بالطفل يتيمًا.

المطلب الثاني: الرحمة بالطفل مستضعفًا.

المطلب الثالث: الرحمة بالطفل رضيعًا.

المطلب الرابع: التوجيهات التربوية والأدبية المستفادة من رحمة القرآن بالطفل.

الخاتمة، وفيها أبرز نتائج البحث.

مشكلة الدراسة وأسئلتها:

يحتل الطفل في أي مجتمع مكانة خاصة في الأسرة والبناء الاجتماعي وتقدم له خدمات صحية، وتعليمية، وترفيهية، واجتماعية لحماية حقوقه ورعايته قبل ميلاده وبعده، اعتمادًا على المواثيق الدولية التي تنادي بحقوق الطفل. وفي المقابل يوجد ضعف في الوعي العام في المجتمع بما يتعلق بنظرة القرآن الكريم إلى الطفل، ولذا فإن مشكلة الدراسة تتحدد بالإجابة عن السؤال التالي: ما المضامين القرآنية المتعلقة بالرحمة بالطفل منذ ولادته وحتى بلوغه؟

أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى تحقيق زمرة من الأهداف، يمكن إجمالها، بـ:

١. تأصيل خلق الرحمة في القرآن الكريم.

٢. الكشف عن المضامين المرتبطة بالرحمة بالطفل من منظور قرآني.

٣. دعم البحث في مجال التربية القرآنية بوصفه أحد مجالات البحث في التربية.

٤. تزويد المؤسسات التربوية التي تعنى بالطفل بمعلومات قرآنية تربوية، يمكن الاستفادة منها في العصر الحالي.

أهمية الدراسة:

ترجع أهمية الدراسة لأهمية الموضوع، وهو الرحمة في القرآن، وجوانب الرحمة فيه متعددة في صورها وأشكالها، وتم اختيار الطفل أنموذجًا، لأن الاهتمام به ظاهرة قديمة حديثة، والدراسات المتعلقة بها متعددة، ومع ذلك فالدراسات التي انبرت للحديث عن إبراز جوانب الرحمة في القرآن الكريم، تعد قليلة في حدود علم الباحث؛ لذلك فإن

دراسة الرحمة في القرآن الكريم، "الطفل أنموذجا"، تظهر بشكل واضح سبق القرآن الكريم للمواثيق المستحدثة التي نادت برعاية الطفل، وفي ذلك دعوة وترغيب إلى الالتزام المهتدي بما سبق إليه القرآن الكريم من إشارة لتلك الجوانب، وتفعيلها تفعيلًا جادًّا فكرًا وسلوكًا في المجتمع المسلم، وفي المنظومة التربوية الإسلامية المعاصرة.

ويمكن إجمال أهمية الدراسة بالنقاط التالية:

١. تنمية الاتجاهات الصحيحة من خلال الرجوع إلى فكر الأمة الإسلامي، والأخذ به وتطبيقه.

٢. إن دراسة الآثار المتعلقة بالطفل من منظور قرآني تسهم في إبراز:

أ. الأحكام التربوية إذا استندت إلى القرآن الكريم نجد لها تأثيرًا مرجعيًّا، وقوة مؤثرة تؤدي إلى التطبيق.

ب. تزويد المؤسسات التربوية، وخاصة من يتعامل مع الأطفال بمعلومات جديدة، ومن منظور قرآني تساعدهم على تقديم الإرشاد والتوجيه للأطفال، فهم أحوج الناس إلى اللطف والشفقة والرفق والرحمة، لأنهم من المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلًا.

منهج الدراسة:

اعتمد الباحث في الكشف عن المضامين المتعلقة بالرحمة بالطفل في القرآن الكريم، على منهجيّ البحث: (المسحي/ الوصفي)، و(التحليلي/ الاستنباطي)؛ من خلال استقراء وتحليل الآيات القرآنية الكريمة، وذلك من أجل وصف واستنباط هذه المضامين والآثار المتعلقة بها.

المبحث الأول
أهمية الرحمة في القرآن الكريم

وفيه مطلبان:

المطلب الأول
مفهوم الطفل والرحمة في القرآن الكريم

مفهوم الطفل:

يلحظ على معنى الطفل في اللغة الصغر والمولودِيّة، وهي حالة ظاهرة من الضعف، تستدعي العناية والرعاية، قال في لسان العرب: (الطفل والطفلة: الصغيران، والطفل: الصغير من كل شيء، والجمع: أطفال، لا تُكسر على غيره، والطفل: المولود، وولد كل وحشية أيضًا طفل، ويكون الطفل واحدًا وجمعًا مثل الجنب)(١).

والطفل كما يظهر في القرآن الكريم هو: من سن الولادة حتى البلوغ، وهذا ما صرّحت به الآية: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [النور:٥٩]، كما عرفَت هيئة الأمم المتحدة الطفل بأنه: (إنسان لم يتجاوز الثامنة عشرة، ما لم يبلغ سن الرشد قبل ذلك، بموجب القانون المنطبق عليه)(٢).

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، (١١/٦٠٠)، الفيروزآبادي، القاموس المحيط، (٤/٦-٧).

(٢) قنديل، مدخل لرعاية الطفل والأسرة، ص٢٣.

مفهوم الرحمة:

الرحمة لغةً: الرقّة والتّعطّف، والرحمة: المغفرة، وتأتي كذلك بمعنى: الرزق والغيث، والرحمة في بني آدم: رقّة القلب وعطفه، ورحمة الله: عطفه، وإحسانه، ورزقه.(١)

أما في الاصطلاح: فالرحمة إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه، وشقت عليها، فهذه هي الرحمة الحقيقية، فأرحم الناس بك من أوصل إليك مصالحك، ودفع المضار عنك، ولو شق عليك في ذلك، فمن رحمة الأب بولده: أن يُكرهه على التأدب بالعلم والعمل، ويشق عليه في ذلك بالضرب وغيره، ويمنعه شهواته التي تعود بضرره، ومتى أهمل ذلك من ولده كان لقلة رحمته به، وإن ظن أنه يرحمه، ويرفهه ويريحه، فهذه رحمة مقرونة بجهل، كرحمة بعض الأمهات.(٢)

ومن معاني الرحمة في القرآن:

ان اختص الله جل جلاله من اتبع هدي القرآن الطريق السديد الذي من شأنه أن يوصل ذاك المهتدي إلى بلوغ رضا الخالق، وهو مراد كل من ارتضى الإسلام دينا، وبما أنَّ الرحمة التي اختص الله بها عباده لا تكون إلا لمن أراد له الهداية، فقد جاءت نصوص القرآن الكريم في كثير من مواضعها مؤكدة ذلك ومبينةً له كما يقول تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء:٩].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [يونس] وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الأنعام:١٣٣].

بعد تأمل هذه الآيات، يتبين أنَ الله عز وجل هو الأصل والمصدر الأول

---

(١) لسان العرب لابن منظور ١٢/ ٢٣٠ ط، صادر

(٢) ابن القيم، اغاثة اللهفان ج٢، ص١٦٩-١٧٥

للرحمة، فمن أسمائه الحسنى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحشر:٢٢]. يقول العلماء: كلمة هو: تفيد الحصر والقصر.

والمسلم يفتتح قراءة سور القرآن الكريم بالبسملة، مع إقرار الرحمة لله رب العالمين، بحيث يقول ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، والمسلم يحمد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على رحمته الواسعة في صلواته كل يوم ما لا يقل عن سبع عشرة مرة خلال قراءته لسورة الفاتحة. في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾﴾ [الفاتحة:٢-٣].

فرحمة الله واسعة وشاملة وعظيمة، أعظمها تكون يوم القيامة.

المطلب الثاني
القرآن الكريم يدعو إلى الرحمة

الرحمة خلق متأصل في النفس الإنسانية، وشامل لكل قيم السلوك الفاضل في التعامل بين الناس، ومن هنا كانت الهدف الأسمى، والغاية العظمى للرسالة الإسلامية، لقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنبيه ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء].

ويؤكد الله جَلَّ جَلَالُهُ، هذا المفهوم في نفوس المسلمين من خلال تكرر مفهوم الرحمة في القرآن الكريم؛ في أول كل سورة من سوره، ومواضع أخرى منه، حتى يكون التعامل بينهم مبنيًّا على هذا الأساس، كما يؤكد النبي ﷺ إلى أن الراحمين يستحقون رحمة الله، لقوله ﷺ: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»(١)، وقوله «وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»، في قوله «من عباده» بيانية، ومقتضاه أن رحمة الله تختص بمن اتصف بالرحمة، وتحقق بها، بخلاف من فيه أدنى رحمة، لكن ثبت في

---

(١) البخاري (١٢٢٤)، كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ يعذب الميت ببعض بكاء أهله، ص٤٣٣.

حديث عبد الله بن عمرو عند أبي داود وغيره «الراحمون يرحمهم الرحمن»⁽¹⁾، والراحمون جمع راحم، فيدخل كل من فيه أدنى رحمة، وإن قلَّت.⁽²⁾

والقرآن الكريم يدعو إلى الرحمة من خلال حثه على الصدقة والإنفاق، والعفو والتسامح، والرفق والمحبة، والصلح بين الناس، ونبذ البخل والكره والقسوة والعنف والظلم والاستبداد والحقد والانتقام، وخص الله سبحانه وتعالى اسمه بالرحمن، بقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن] والرحمن صيغة شمول واستغراق في الرحمة، بحيث تشمل كل ما خلقه الله من إنسان وشجر وسماء وأرض وشمس وقمر ونار وجنة وغيرها، فكل ما ذكره الله سبحانه وتعالى من مخلوقاته في سورة الرحمن، والذي أعقبه بالسؤال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، تذكيرًا بحقيقة الرحمة، التي كتبها الله على نفسه، بقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤]. وفي قوله تعالى: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩﴾ [الحجر]، تعليم للمؤمنين أن يدعوه باسم الغفور الرحيم.

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِئَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا، وَأَنْزَلَ فِي الأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الْخَلْقُ حَتَّى تَرْفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ»⁽³⁾.

وهذه الرحمة هي رحمته التي خلقها لعباده، وجعلها بينهم، والتي أمسكها هي ما يتراحمون به يوم القيامة، مما كان بينهم في الدنيا، ويجوز أن تكون الرحمة التي أمسكها، أي عند ملائكته المستغفرين لمن في الأرض؛ لأن استغفارهم لهم دليل على أن في نفوس الملائكة رحمة على أهل الأرض⁽⁴⁾.

* * *

---

(١) سنن الترمذي (١٩٢٤)، كتاب البر والصلة عن رسول الله ﷺ باب ما جاء في رحمة المسلمين، (ج٤)، ص٢٨٤. خلاصة حكم المحدث: قال ابو عيسى: حديث حسن صحيح.
(٢) فتح الباري لابن حجر (ج٣/ص١٥٨) بتصرف
(٣) البخاري (٥٦٥٤)، ص ٢٢٣٦.
(٤) شرح ابن بطال (٢٥٤/١٧)

المبحث الثاني
الطفل في معرض الامتنان

وفيه أربعة مطالب، هي:

المطلب الأول
تحقيق إنسانية الطفل ومشهده في الوجود

إن من يتأمل الآيات الكريمة في شأن الطفولة، يجد أنها أخذت من الاهتمام والحفاوة البالغة شيئًا كثيرًا، فهي حق إنساني جدير بالبحث والبيان؛ فالطفل كائن له الحق بأن يعترف به في الوجود الإنساني والكوني، ولذا حذر القرآن الكريم من الوأد في موضعين، جاءا بصيغة منفرة مهولة، تجرّد صاحبها من الرأفة الإنسانية، وتبين أنه يئد إنسانيته كذلك، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ [التكوير:٨-٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل:٥٨-٥٩]، ففي هذه الآيات يصور لنا القرآن أحوال الناس في الجاهلية تجاه الطفلة الأنثى؛ فهم مترددون بين أمرين: إما إبقاء الطفلة حيةً على مضض، أو الخيار الآخر وهو: دفنها حيةً، والتعبير ﴿يَدُسُّهُۥ

﴿فِي ٱلتُّرَابِ﴾ يوحي بالمبالغة في القتل والوأد، قال أبو السعود: "﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ﴾: أي أُخبر بولادتها، ﴿ظَلَّ وَجۡهُهُۥ﴾: أي صار أو دام النهار كله، ﴿مُسۡوَدّٗا﴾: من الكآبة والحياء من الناس، واسوداد الوجه كناية عن الاغتمام والتشويش، ﴿وَهُوَ كَظِيمٞ﴾: ممتلئ حنقًا وغيظًا، ﴿يَتَوَٰرَىٰ﴾: أي يستخفي ﴿مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾: من أجل سوءته، والتعبير عنها بـ ﴿مَا﴾؛ لإسقاطها عن درجة العقلاء، ﴿أَيُمۡسِكُهُۥ﴾: أي مترددًا في أمره، محدثًا نفسه في شأنه: أيمسكه ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾: ذل ﴿أَمۡ يَدُسُّهُۥ﴾: يخفيه ﴿فِي ٱلتُّرَابِ﴾ بالوأد، والتذكير باعتبار لفظ ﴿مَا﴾"(١).

وهذا التردد علاوةً على ما فيه من فراغٍ للقلب من العاطفة، فيه أيضًا تردد في الاعتراف بإنسانية هذه الطفلة، وهذا لا يقبله القرآن.

ومن رحمة القرآن بالطفل أن جعل له الحق في العيش والحياة، ولم يصوّره عبئًا ثقيلًا على الأسرة والمجتمع، فنهى الآباء عن قتل أولادهم مخافة الفقر، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ٣١﴾ [الإسراء]، وقال تعالى أيضًا: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡ﴾ [الأنعام:١٥١].

وهناك سرٌّ في التغاير في التعبير القرآني بين ما جاء في سورة الإسراء، وما جاء في سورة الأنعام، وممن ذكر ذلك من العلماء الآلوسي، حيث قال: "وقيل: الخطاب في كل آية لصنف، وليس خطابًا واحدًا، فالمخاطب بقوله سبحانه وتعالى: ﴿مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ﴾ من لا فقر له، ولكن يخشى وقوعه في المستقبل، ولهذا قدم رزقهم ها هنا في قوله ﷻ: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡ﴾، وقدم رزق أولادهم في مقام الخشية، فقيل: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡ﴾، وهو كلام حسن"(٢).

---

(١) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، (٥/١٢١)

(٢) الآلوسي، روح المعاني، (٨/ ٥٤).

وعلى هذا فلا ينبغي أن يشغل الوالد برزق ولده، فيدفعه ذلك إلى التخلص منه، فهذه صورة أخرى، ووجه آخر للوأد، ولكنه للذكر والأنثى معًا.

وقد رغَّب القرآن بالمولود الأنثى، وبين أنه ربما كان أفضل من المولود الذكر بكثير، وربما فاقه ومازه، وهذا يتضح لنا في قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ﴾ [آل عمران:٣٦].

وبتأمل الجملة المعترضة ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾ يتبين أنها رفعت شأن هذا المولود الأنثى، وبيّنت أن الطفل لا ينبغي أن يحكم عليه لمجرد جنسه، فليس الجنس عائقًا للرقي في الرتبة الإيمانية، وليس مانعًا من الكمالات العقلية والنفسية، وعلى هذا الأساس لم يفرق القرآن بين المولود الأنثى والمولود الذكر في الإنسانية.

قال الزمخشري: "﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾ من التعظيم للموضوع والرفع منه، وليس الذي طلبت كالأنثى التي وهبت لها"(١) وقال محمد عبده: "﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾أي بمكانة الأنثى التي وضعتها، وأنها خير من كثير من الذكور، ففيه دفع لما يوهمه قولها من خشية المولود وانحطاطها عن مرتبة الذكور، وقد بين ذلك بقوله: ﴿وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ﴾ الذي طلب أو تمنت ﴿كَٱلۡأُنثَىٰ﴾ التي وضعت، بل هذه الأنثى خير مما كانت ترجو من الذكر"(٢).

وقد بين القرآن الكريم في سورة الشورى أحوال الناس في الأولاد، قال الله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى:٤٩-٥٠].

---

(١) الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل، (١/ ٣٨٥).

(٢) محمد عبده، تفسير القرآن العظيم المعروف بتفسير المنار، (٣/ ٢٥٥).

قال ابن كثير: ”جعل الناس أربعة أقسام؛ منهم من يعطيه البنات، ومنهم من يعطيه البنين، ومنهم من يعطيه من النوعين ذكورًا وإناثا، ً ومنهم من يمنعه هذا وهذا، فيجعله عقيمًا لا نسل له ولا ولد له“(١).

وفي تقديم ذكر الإناث تنويهٌ بشأنهن، ورفع لمكانتهن، قال البيضاوي: ”المعنى: يجعل أحوال العباد في الأولاد مختلفةً على مقتضى المشيئة؛ فيهب لبعض إما صنفًا واحدًا من ذكر أو أنثى، أو الصنفين جميعًا، ويعقم آخرين، ولعل تقديم الإناث؛ لأنها أكثر لتكثير النسل، أو لأن الكلام في البلاء والعرب تعدّهن بلاءً، أو لتطييب قلوب آبائهن“(٢).

إذن يظهر أن السر في تقديم الإناث على الذكور هنا لبيان أحقية الأنثى في الوجود، ومكانتها في المجتمع، ويؤخذ هذا أيضًا من آيات أخرى من مثل ما جاء في سورة النساء: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ [النساء:١١]، حيث حفظ القرآن حق الأنثى وأثبته؛ اعترافًا منه بإنسانيتها، قال الشيخ محمد عبده: ”اختير فيها هذا التعبير؛ للإشعار بإبطال ما كانت عليه الجاهلية من منع توريث النساء، فكأنه جعل إرث الأنثى مقررًا معروفًا، وأخبر بأن للذكر مثله مرتين، أو جعله هو الأصل في التشريع، وجعل إرث الذكر محمولًا عليه، يعرف بالإضافة إليه، ولا يلتئم السياق بعده كما ترى“(٣).

وقد بين القرآن فاعلية الطفولة في الحياة، وأن من باب الإنسانية للطفولة أن تحفظ من الضياع، ويبرز هذا في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ﴾ [يوسف:٢١].

والبعد الاجتماعي الذي ترمي إليه الآية هنا: هو أن لا تجعل الطفولة

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٤/ ١٥٤)
(٢) البيضاوي، أنوار التنزيل، (٢/٣٦٦)
(٣) محمد عبده، تفسير القرآن العظيم المعروف بتفسير المنار، (٤/ ٣٣٣).

ضائعةً تائهةً أو بائسةً، فلربما كان فيها من المواهب والنبوغ ما يمكن أن يعود بالفائدة والنفع على المجتمع، لا أن يكون عنصر فساد، وهذا ما عليه حقوق الإنسان اليوم، حيث تثبت للطفل الحق في التمتع بطفولته ومعيشته، وعدم تكليفه بالعمل الشاق الذي لا يتوافق مع سنه، وهذه الحقوق أخذت بها الهيئات الإنسانية، وأصدرت ميثاقًا لحقوق الطفل في اليونيسيف تتلخص مبادئه في (عدم التمييز، وتضافر الجهود من أجل المصلحة الفضلى للطفل، والحق في الحياة، والحق في البقاء، والحق في النماء، وحق احترام رأي الطفل)⁽¹⁾.

المطلب الثاني
احترام ذاتية الطفل وطموحاته

مما ركز عليه القرآن الكريم رحمة بالطفل، تحقيق إنسانيته واحترام مشاعره وطموحاته ومواهبه، فقد قدم القرآن نموذجًا في ذلك، وهو ما جاء في سورة سيدنا يوسف عليه السلام، قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ٤ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٥ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦﴾ [يوسف:٤-٦].

هنا لدى سيدنا يوسف عليه السلام رؤيا وطموح وتطلعات، وقد قوبلت هذه التطلعات وتلك الرؤيا بتعزيز من قبل والده نبي الله يعقوب عليه السلام، فلم يلحظ منه تعنيفًا على تلك الرؤيا، ولم يأمره بصرف النظر أو الإضراب صفحًا عن

---

(١) هدى الناشف، الأسرة وتربية الطفل، ص ٤٨-٥١ باختصار.

هذه الرؤيا، بل أراه احترامًا لذاتية الطفولة، وتكريمًا لقيمة الموهبة، وحسن تعامل مع التطلعات والإبداع، ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ﴾، استخدم هذه الكلمة للتلطف والتحبب، وهي كلمة يُحتاج إليها لتقع في نفس الطفل موقعها، ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٥﴾، قال ابن عاشور: "﴿يَٰبُنَيَّ﴾ وهذا التصغير كناية عن تحبيب ورحمة وشفقة. نزل الكبير منزلة الصغير؛ لأن شأن الصغير أن يحب ويشفق عليه، وفي ذلك كناية عن إمحاض النصح له"⁽¹⁾. ثم بدأ يبين له أن هذه الرؤيا سيكون لها شأن، حيث سيجتبيه ربه، ويعلمه من تأويل الأحاديث.

وهذا تعزيز للطموح، وهو أثر نفسي عميق في الطفل، فإذا رأى تحفيزًا نشأ في نفسه الإبداع، وتعززت لديه القدرة على المضي قدمًا في تحقيق تطلعاته وآماله.

ويكشف هذا الموقف القرآني أن الطفولة مرحلة عمرية حرجة، تحتاج إلى الحذر والحيطة في التعامل معها، وتحتاج إلى معرفة كيف يفكر الطفل، وكيف يشعر، وكيف ينبغي أن يوجه، وما هي الطرق في تدارك مواقفه، بعيدًا عن الضغط النفسي، الذي يحد من نشاطه وفاعليته.

وهذا الموقف القرآني يرشد إلى ما يسمى التوازن النفسي أو القيمة النفسية، ويقصد بذلك: (التكامل بين الوظائف النفسية المختلفة، مع القدرة على مواجهة الأزمات النفسية العادية، التي تطرأ عادةً على الإنسان مع الإحساس الإيجابي بالسعادة والكفاية، ويعني: التكامل بين الوظائف النفسية؛ أي خلو الإنسان من الصراع الداخلي، وما يترتب عليه من توتر نفسي وقلق وتردد، كما يعني: قدرة الفرد على حسم الصراع في حال وقوعه)⁽²⁾.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٢/١٧)

(٢) أ.د. هناء يحيى أبو شهبة، ملخص بحث (السنة النبوية وتوجيه المسلم إلى الصحة النفسية)، ص١٣٤، ضمن المؤتمر العلمي الأول للسنة النبوية (السنة النبوية في الدراسات المعاصرة)، جامعة اليرموك، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ٢٩ - ٣٠ ربيع الأول ١٤٢٨هـ، ١٧ - ١٨ نيسان ٢٠٠٧م.

المطلب الثالث
بيان أثر الطفولة في الحياة

بين القرآن الكريم نفع الطفولة وفاعليتها في الحياة، وأبرز القيم التي انطوت عليها، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات].

فهذه صورة من الطفولة في طور النشأة، وقد عبّر القرآن عن هذه المرحلة العمرية بهذا التعبير: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾، إذ قد توكل بعض الأعمال للطفل تعويدًا له على الاحتمال والصبر والجلد، وهذا أمر مرغوب فيه، ولكن أن يكون ذلك ضمن المقدور والمستطاع، وفي إطار هذا الهدف.

والملاحظ هنا: أن الخطاب بين النبي الوالد وولده فيه مشورة من جهة، واختبار للجانب التربوي الذي ينتظره الوالد من ولده ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾.

هذه الآية حملت من معاني الفاعلية للطفولة النوعية الواعية ما يجعلها مثالًا للسلوك النوعي والأدب العظيم.

وثمة نموذج آخر يحتوي على جانب عميق الدلالة في الناحية التربوية والنفسية في الاهتمام بنبوغ الطفل وتنمية إدراكاته، وهو قوله تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾ [مريم:٥٠].

قال ابن كثير: "﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أي: الفهم والعلم والجد والعزم والإقبال على الخير، والانكباب عليه والاجتهاد فيه وهو صغير حدث"(١).

وهذا نبوغ على غير العادة في الأطفال، قال ابن عاشور: "هذا يقتضي

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٣/ ١٥٣).

أن اللّه ﷻ أعطاه استقامة الفكر، وإدراك الحقائق في حال الصبا على غير المعتاد، كما أعطى نبيه محمدًا ﷺ الاستقامة وإصابة الرأي في صباه، ويبعد أن يكون يحيى ﵇ أعطي النبوة وهو صبي؛ لأن النبوة رتبة عظيمة، فإنما تعطى عند بلوغ الأَشُدّ"(١).

والقرآن هنا يشير إلى وجود النبوغ في حال الطفولة والصبا، وينبه إلى ضرورة استغلال هذه الطاقات التي تظهر بين أفراد الأطفال، وقد يكون النبوغ بالعلم والمعرفة والإدراكات العقلية والملكات الفكرية، حيث يصبح لهذه الإدراكات الذهنية أثر في صوغ تصوراته وتكوينها حول الوجود، وحيال المواقف المختلفة في الحياة.

وقد يكون على المستوى التقني والعملي، على معنى أن مشارب النبوغ والفاعلية في الطفولة متعددة، ومتنوعة تنوّع الإنسان واستعداداته التي وهبه اللّه ﷻ إياها.

ولا شك أن هذا لفت لأنظار المربين إلى ضرورة التوجيه المبكر، والرعاية الأولية للطفولة التي تبدي نبوغًا وفهمًا حيث تعزز فيها الدافعية للتفكير، وتنمي عندهم جوانب الإبداع.

وقد نبه النبي ﷺ من خلال النماذج العملية إلى ضرورة تعزيز الملكات الذهنية للطفولة الموهوبة، فقد روى الإمام البخاري عن ابن عباس ﵄ «أن النبي ﷺ دخل الخلاء فوضعت له وضوءًا، قال: من وضع هذا؟ فأُخبر، فقال: اللهم فقهه في الدين»(٢).

يقول الدكتور علي عجين: "إن مبادرة الغلام لوضع الوضوء للنبي ﷺ دون أن يطلب منه ذلك علامة على فقهه، ودقة ملاحظته، وقوة تركيز

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (١٦/١٨).

(٢) العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب وضع الماء عند الخلاء، حديث رقم ١٤٣، (١/١٧٠)، ومسلم (٤/١٩٢٧ رقم٢٤٧٧).

فيما يحتاجه النبي ﷺ، ولذلك سأل النبي ﷺ من وضع هذا؟ والعادة أن يضع ذلك أحد الكبار من أهل أو أصحاب، أما أن يبادر غلام صغير لمثل هذا التصرف، فهذه علامة نبوغه، فبادره النبي ﷺ بالدعاء له في الفقه في الدين، لما رأى من استعداد ذاتي للعلم والفقه في شخصية ابن عباس رضي الله عنهما"(١).

وعلى هذا، فإنه لا بد من إتاحة الفرصة للطفل لإظهار موهبته وعدم كبت شخصيته، و(إن عدم اكتراث الوالدين لمواهب الأبناء، وعدم وجود ما يزكيها في البيت، مع عدم تقبل الوالدين أو المجتمع للأفكار الغريبة غير التقليدية لدى المتفوق، علامة على النظرة السلبية للمتفوق، تشكل مشكلةً أساسيةً في طريق الموهوب، قد تكون عائقًا لإبراز موهبته فيما بعد) (٢).

* * *

---

(١) عجين، علي إبراهيم، رعاية الموهوبين في السنة النبوية- ابن عباس نموذجًا، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، جامعة آل البيت، عدد ٤، ذو الحجة ١٤٢٩هـ - كانون أول ٢٠٠٨م، ص ١٦٢.

(٢) شقير، زينب محمود، رعاية المتفوقين والموهوبين والمبدعين، ص ٥٧.

المبحث الثالث
مظاهر الرحمة بالطفل في القرآن الكريم

المطلب الأول
الرحمة بالطفل يتيمًا

معنى اليتيم شرعًا: هو المنفرد عن الأب؛ لأن نفقته عليه لا على الأم، وفي البهائم: هو المنفرد عن الأم؛ لأن اللبن والأطعمة منها(١).

وقال الزمخشري: "اليتامى: الذين مات آباؤهم فانفردوا عنهم، واليتم: الانفراد، ومنه: الرملة اليتيمة والدّرة اليتيمة، وقيل: اليتم في الأناسي من قبل الآباء، وفي البهائم من قبل الأمهات"(٢).

والطفل اليتيم كغيره من الأطفال له الحق أن يحصل على قدر مناسب من الحب والحنان والعطف والتوجيه والإرشاد. وقد يعاني الطفل اليتيم من مشكلات منها: العوز المادي، كنقص الغذاء والكساء والمسكن، والحرمان الانفعالي من الحب والعطف والحنان، وقد يؤدي عدم الاهتمام به والرعاية السليمة له أن يتشرد ويتخلف، وأن يصبح جانحًا، حيث أظهرت نتائج الدراسات التي أجريت في هذا المجال أن إهمال اليتيم يؤدي إلى التأخر الدراسي، وإلى تكوين العقد النفسية، مثل الشعور بالنقص والدونية.

---

(١) الجرجاني، التعريفات، ص٣٣١.

(٢) الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل، (١/ ٤٩٤).

وتؤكد الدراسات على أهمية المؤثرات الأسرية في نمو الطفل وتكوينه الشخصي، عندما يفقد الطفل أحد أبويه في طفولته المبكرة، حيث إن فقدان الطفل لأحد أبويه إن لم يتوفر له البديل المناسب يمكن أن يؤدي إلى مشاعر بعدم الأمن والقلق والاعتمادية بالإضافة إلى تأثيرات في الشخصية يمكن أن تكون خطيرة.

وقد رتب القرآن الكريم للطفل اليتيم حقوقًا مادية ومعنوية؛ رحمةً به وبحالته التي توجب شفقة الآخرين عليه؛ إشعارًا بأن اليتم للطفل ليس شيئًا شائنًا، وليس دليل نقص في إنسانيته، وأخذت الرحمة بالطفل اليتيم في القرآن أكثر من بعد نفسي ومادي، وقد تمثل ذلك فيما يلي:

- **عدم قهر اليتيم:**

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾﴾ [الضحى:٦-٩].

وقد استشعر نبينا ﷺ مرارة اليتم، فكان ذلك حافزًا على إكرام اليتيم، ومراعاة آلامه النفسية ومشاعره في فقد الأب أو الأم أو كليهما.

(والقرآن استعمل اليتيم مفردًا ومثنى وجمعًا، ثلاثًا وعشرين مرة، كلها بمعنى اليتم الذي هو فقدان الأب، ويلحظ فيه اقتران اليتيم بالمسكنة في أحد عشر موضعًا، كما ذكر فيه من آثار اليتم الجور، وأكل المال، وعدم الإكرام، والدع الذي هو: الدفع العنيف مع جفوة)⁽¹⁾.

وفي موضع آخر يعيب القرآن إزعاج اليتيم طفلًا بصورة منفّرة، قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾﴾ [الماعون:١-٢]، ومعنى يدع اليتيم: (يدفعه دفعًا عنيفًا بجفوة وأذى، ويرده ردًّا

---

(١) بنت الشاطئ، التفسير البياني للقرآن الكريم، (١/ ٤٣).

قبيحًا بزجر وخشونة)(١)، وهذا غاية في النهر والقهر، حيث جُمع على اليتيم هنا قهران: قهر مادي، وذلك بدفعه بيديه، وقهر معنوي، بإسقاطه من دائرة الاعتبار، وفي هذا منتهى الإساءة والانتحاء عن الإنسانية.

- **الحض على إطعام اليتيم:**

وجعل عنوان ذلك تقديم الطعام له، رغبةً في إدخال المسرّة إلى قلبه، وإشعارًا بالترحيب به، وأن يُتمه لا يشكل ثقلًا على المجتمع، وأن مجتمعًا يسوده التكافل لا يشعر اليتيم فيه بقهر يُتمه، إذ إن مرارة اليتم تذهبها حلاوة الإحسان، قال الله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ (١١) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦)﴾ [البلد:١١-١٦].

فالإطعام لليتيم طريق يتجاوز بها المسلم العقبة الكؤود، ويفك بها نفسه من النار، فهي قربة منجية، وإذا كان القرآن جعل من اليتيم طريقًا للنجاة من النار، كان ذلك أدعى إلى محبة اليتيم والعطف عليه، وفي تقديم إطعام اليتيم على إطعام المسكين تنويه بأهمية رعايته وشدة احتياجه إليهما، (وفي إطعام هذا جمع بين الصدقة والصلة، وفيهما من الأجر ما فيهما، وقيل إنه لا يخص القريب، بل يشمل من له قرب بالجوار)(٢).

- **جعل مال اليتيم وقفًا عليه:**

لا يجوز أن تطمح الأنظار إليه: فقد أحاط القرآن اليتيم بالحماية والرعاية، ونبه إلى ضرورة الحيطة فيه، قال الله تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الإسراء:٣٤].

والنهي عن الاقتراب من مال اليتيم هنا فيه مفهوم الموافقة أو فحوى

---

(١) الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل، (٤/ ٨٠٩).
(٢) الآلوسي، روح المعاني، (٣٠/ ١٣٨).

اللفظ(١)، إذ التصرف فيه، وأخذه منهي عنه من باب أولى. وعلى هذا، فإن مال اليتيم حمىً لا ينبغي أن يستباح؛ مبالغةً في التشديد على أهميته، وقد رتب الله سبحانه وتعالى على ذلك الوعيد البالغ، فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ١٠﴾ [النساء].

وهذه صورة بلاغية منفّرة تجعل النفس تتوقف في شأن مال اليتيم قبل التصرّف فيه بحقّه.

قال القرطبي: ”سمي أخذ المال على كل وجوهه أكلًا؛ لما كان المقصود هو الأكل، وبه أكثر إتلاف الأشياء، وخص البطون بالذكر؛ لتبيين نقصهم، والتشنيع عليهم بضد مكارم الأخلاق، وسمي المأكول نارًا بما يؤول إليه“(٢).

وقد رتب القرآن في قسمة المواريث حقًّا لمن حضر القسمة من اليتامى بأن يرزقوا منه، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٨﴾ [النساء].

والآية هنا فيها تطييب لخاطر اليتيم من حرمانه النفسي والمادي، قال أبو السعود: ”وهو أمر ندبٍ كُلف به البالغون من الورثة تطييبًا لقلوب الطوائف المذكورة، وتصدقًا عليهم“(٣).

المطلب الثاني
الرحمة بالطفل مستضعفًا

- لقد رفع القرآن التبعة والمسؤولية عن الطفل قبل بلوغه، وجعله من

---

(١) وهو: فهم غير المنطوق به من المنطوق بدلالة سياق الكلام ومقصوده، الغزالي، المستصفى من علم الأصول، (٢/ ١٩٥)، وانظر الشيرازي، اللمع في أصول الفقه، ص ١٧.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (٥/ ٣٥).

(٣) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، (٢/ ١٤٧).

زمرة المستضعفين، الذين هم أحوج ما يكونون للرحمة والعناية، وقد اشتملت سورة النساء -التي هي عنوان على المستضعفين- على استثنائهم من القتال في سبيل الله سبحانه وتعالى، قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [النساء].

- فقد استثنى الولدان المستضعفين من المشاركة في القتال في سبيل الله سبحانه وتعالى، وقد بيّن القرآن عذر الولدان المستضعفين في شأن الهجرة في سبيل الله سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾ [النساء].

ولنا أن ننظر في لطف التشريعات القرآنية بهذه الفئة من الناس، التي لا تستطيع حيلةً ولا تهتدي سبيلًا، ومعنى ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾: "لا يقدرون على حيلة، ولا على قوة الخروج منها، ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ أي: لا يعرفون طريقًا إلى الخروج"(١).

المطلب الثالث

مراعاة الطفل رضيعًا

عنى القرآن الكريم بالطفل في حال الرضاع، وفرض له حقًّا في الرضاع؛ لنماء جسده، وإكسابه صحة جسدية ونفسية، قال الله تعالى:

---

(١) البغوي: معالم التنزيل، (١/ ٤٧٠).

﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ مِثۡلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنۡ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٖ مِّنۡهُمَا وَتَشَاوُرٖ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَاۗ وَإِنۡ أَرَدتُّمۡ أَن تَسۡتَرۡضِعُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا سَلَّمۡتُم مَّآ ءَاتَيۡتُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٢٣٣﴾ [البقرة:٢٣٣].

وهذه الآية وردت في سياق أحكام الطلاق وحقوق الزوجات، والنهي عن الإضرار بهن، ثم عرض القرآن للحديث عن حقوق الرضيع، وعن حقوق المرأة المرضع أيضًا، قال ابن عاشور: " ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ﴾: والوالدات معناه: والوالدات منهن؛ أي من المطلقات المتقدم الإخبار عنهن في الآية الماضية، أي المطلقات اللائي لهن أولاد في سن الرضاعة، ودليل التخصيص أن الخلاف في مدة الإرضاع لا يقع بين الأب والأم إلا بعد الفراق، ولا يقع في حالة العصمة؛ إذ من العادة المعروفة عند العرب ومعظم الأمم أن الأمهات يرضعن أولادهن في مدة العصمة، وأنها لا تمتنع منه من تمتنع إلا لسبب طلب التزويج بزوج جديد بعد فراق والد الرضيع، فإن المرأة المرضع لا يرغب الأزواج فيها؛ لأنها تشتغل برضيعها عن زوجها في أحوال كثيرة.

وجملة ﴿يُرۡضِعۡنَ﴾ خبر مراد به التشريع، وإثبات حق الاستحقاق، وليس بمعنى الأمر للوالدات والإيجاب عليهن؛ لأنه قد ذكر بعد أحكام المطلقات، ولأنه عقب بقوله ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمۡ أَن تَسۡتَرۡضِعُوٓاْ﴾ فإن الضمير شامل للآباء والأمهات على وجه التغليب، فلا دلالة في الآية على إيجاب إرضاع الولد على أمه، ولكن تدل على أن ذلك حق لها، وقد صرح بذلك في سورة الطلاق بقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ﴾ [الطلاق:٦]، ولأنه عقب بقوله ﴿وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [البقرة:٢٣٣] وذلك أجر الرضاعة، والزوجة بالعصمة ليس لها نفقة وكسوة لأجل الرضاعة، بل لأجل العصمة، وقوله ﴿أَوۡلَٰدَهُنَّ﴾ صرح بالمفعول مع كونه معلومًا إيماءً إلى

أحقية الوالدات بذلك وإلى ترغيبهن فيه؛ لأن في قوله ﴿أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ تذكيرًا لهن بداعي الحنان والشفقة"(١).

كما يتبين من قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ [الطلاق:٦]، ظهورًا واضحًا لإيلاء الإسلام الرضاعة حديثًا جاء عقب الحديث عن التشريعات المتعلقة بالطلاق والعدة، وعقب إيصاء القرآن بالتقوى ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ۝٥﴾ [الطلاق:٥].

كما تؤكد الدراسات أن الأطفال الذين يتم فطامهم في مرحلة مبكرة يصيرون في الكبر أقرب إلى التشاؤم في حين أن الأطفال الذين يتم فطامهم في مرحلة متأخرة، يصبحون في الكبر أكثر ميلًا إلى التفاؤل. وتؤدي القسوة في الفطام إلى ترك آثار نفسية سيئة عميقة في الطفل، قد يكون لها أثرها في المستقبل، وليس غريبا أن يشعر الطفل بقلق دائم لا يعرف مصدره، أو يعوضه عن الثدي بمص أصابعه، وقضم أظافره.

ويتفق الباحثون على التوصية بضرورة إتمام عملية الفطام بالتدريج بتعويد الطفل تدريجيًا على تناول السوائل وغيرها من الأطعمة اللينة مبكرًا وزيادتها بالتدريج(٢).

ولذا يجب الاهتمام بنفسية الطفل الرضيع؛ لأنه يتأثر بنفسية والدته ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ [البقرة:٢٣٣]، قال محمد عبده: "العلة في الأحكام السابقة: منع الضرار من الجانبين، بإعطاء كل ذي حق حقه بالمعروف، وهو يتناول تحريم كل ما يأتي من أحد الوالدين للإضرار بالآخر، كأن تقصر هي في تربية الولد البدنية أو النفسية؛

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٢/٤٠٩)

(٢) صوالحة وحوامدة سيكولوجية التنشئة الاجتماعية (النظرية والتطبيق)، ص٤٩-٥٠

لتغيظ الرجل، وكأن يمنعه هو من أمه ولو بعد مدة الرضاع أو الحضانة، فالعبارة نهي عام عن المضارة بسبب الولد، لا يقيد ولا يخصص بوقت دون وقت، أو حال دون حال، أو شخص دون شخص"(١).

إذا نشأ الطفل في جو مشبع بالحب والثقة، فإنه يتحول عند نموه إلى شخص يستطيع أن يحب، لأنه أحب، وتعلم كيف يحب، وسيكون شخصًا يستطيع أن يثق، لأنه عاش في جو من الثقة مع الوالدين. في مثل هذا الوضع يحصل الطفل على إشباع لحاجاته النفسية كالشعور بالأمن والطمأنينة والإحساس بقيمته الشخصية.

ويؤكد الباحثون أنه كلما كانت العلاقة بين الوالدين منسجمة، كلما أدى ذلك إلى جو يساعد على نمو الطفل إلى شخصية كاملة ومتزنة، أما الخلافات والتشاحن بين الزوجين وخاصة عندما يشعر بها الطفل تعتبر من العوامل المؤدية إلى نمو الطفل نموًا نفسيًا غير سليم، كما أن الخبرات المؤلمة ذات الأثر النفسي غير السليم على نمو الطفل وشعوره بما يوجد بين والديه من انعدام الحب والعطف وما تحويه علاقاتهما من خلاف وتشاحن ينشئ صراعا نفسيا بالنسبة للطفل.

إن تنشئة الأطفال في مراحل نموهم الأولى تتطلب الأم المتخصصة المعدة إعدادًا سليمًا للأمومة، وهي التي تستطيع أن تشبع حاجة الطفل إلى الحب والحنان والرعاية، فينشأ نشأته السليمة التي تتوازن فيها نفسه أو يكون لديه الاستعداد للتوازن المناسب، وتلك نقطة البدء الخطيرة في حياة البشرية؛ لأنها هي التي ترسم مستقبل البشرية (٢).

ولا يسقط حق الطفل في الرضاعة على أي حال، فإن من لم ترضعه

---

(١) محمد عبده، تفسير القرآن العظيم المعروف بتفسير المنار، (٢/٣٤٦).

(٢) صوالحة وحوامدة، سيكولوجية التنشئة الاجتماعية (النظرية والتطبيق)، ص١٨٩

أمه يستأجر والده مرضعًا، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ﴾ [الطلاق:٦].

إن أهمية الرضاعة لا تقتصر على مجرد تقديم الطعام للطفل، بل تتضمن أيضا ضرورة شعوره بالطمأنينة والعطف والحنان، وقد أكدت الدراسات على أهمية احتضان الطفل والالتصاق البدني بينه وبين الأم باعتباره عاملا رئيسيًّا يحدد النمو الاجتماعي له؛ حيث إنه من المحتمل أن الالتصاق بين الطفل البشري مع أمه يحدث بشكل مؤكد حينما لا يكون الطفل الرضيع خائفًا (١).

وقد بين القرآن أن الرضاعة للطفل تؤكد لصوق الطفولة بالأمومة وقربها منها، وقد كشف القرآن مشهدًا يؤكد هذا الانسجام، فأشد ما يكون القرب حين تضم المرضعة رضيعها، وهي صورة من التواصل العاطفي والنفسي، وفي يوم عظيم مهول تتخلى تلك المرضعة عن طفلها، إذ سيفر الإنسان من أقرب الناس إليه، ولا يسأل الحميم عن حميمه، وقد اختار القرآن لبيان انقطاع الصلات في ذلك اليوم هذا الانقطاع في اتصال المرضعة برضيعها، قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ① يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ②﴾ [الحج:١-٢].

وهنا سرّ في التعبير بـ(كل مرضعة)، إذ هناك فرق بين المرضعة والمرضع، قال الفيروزآبادي: (أرضعت المرأة، فهي مرضع: لها ولد ترضعه، فإن وصفتها بإرضاع الولد، قلت: مرضعة) (٢).

---

(١) المرجع نفسه، ص٤٧

(٢) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، (١/ ٩٣٢)، الرازي، مختار الصحاح، ص ٢٦٧.

وقال الجمل: (كل مرضعة) أي مباشرة للإرضاع، بأن ألقمت الرضيع ثديها، فهو بالتاء لمن باشرت الإرضاع، وبلا تاء لمن شأنها الإرضاع وإن لم تباشره)(١).

المطلب الرابع
التوجيهات التربوية والأدبية
المستفادة من رحمة القرآن بالطفل

لقد راعى القرآن الكريم توجيه الطفل تربويًا وأدبيًا من خلال الإرشادات السلوكية والجوانب الخلقية، وقد سبق الإسلام كثيرًا من النظريات التربوية القديمة والحديثة في وصف خصائص الأطفال، وطرق تنشئتهم والعناية بهم: حيث ينظر الإسلام إلى الطفل الصغير على أنه مخلوق ضعيف لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، ولكنه مزود بحواس وخصائص عقله، قادرٌ على التفاعل مع بيئته، وقابلٌ للتعلم، وتنظيم هذه المعاني من خلال الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا (٢٨)﴾ [النساء]، وقال أيضًا ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ (٧٨)﴾ [النحل:٧٨]، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ (٨) وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ (٩) وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ (١٠)﴾ [البلد:٨-١٠].

فهم مزودون باستعدادات وقابليات للخير والشر في آن واحد، ومزودون بقدرات عقلية تمكنهم من التمييز والاختيار والتعلم(٢).

---

(١) الجمل، الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، (٣/ ١٥١).

(٢) صوالحة وحوامدة، سيكولوجية التنشئة الاجتماعية (النظرية والتطبيق)، (ص ١٨٨)

وقد جاءت رحمة القرآن الكريم بتوجيه الطفل وتربيته، إرشادًا وتقويمًا ضمن أحكام تتعلق بزينة المرأة وآداب الدخول على الوالدين، وقد تناولت هذه الإرشادات والتوجيهات الخلقية والتربوية نوعين من الأطفال: النوع الأول: الطفل غير المميز، والنوع الثاني: الطفل المميز.

فأما ما يتعلق بالطفل غير المميز، فقد جاء التوجيه بشأنه ضمن الآيات التي تتعلق بزينة المرأة، قال الله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور:٣١].

وقد اختلف المفسرون في معنى ﴿لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾، فذهب الطبري إلى أنهم، "الأطفال الذين لم يكشفوا عن عورات النساء بجماعهن"(١) على معنى أنهم مميزون، ولكن لم يبلغوا الحلم بعد. وذهب الجصاص إلى أنهم: "الذين لا يدرون ما هنَّ من الصغر"(٢).

قال الزمخشري: "اما من ظهر على الشيء، إذا اطلع عليه؛ أي لا يعرفون العورة، ولا يميزون بينها وبين غيرها، وإما من ظهر على فلان إذا قوي عليه؛ أي لم يبلغوا أوان القدرة على الوطء"(٣).

والذي يظهر أنهم الذين لا يفرقون العورة من غيرها؛ لأن الطفل قد يبلغ عمرًا يميز به العورة من غيرها، ولا يملك قدرة على الوطء لعلة أو ما شابه ذلك، ولأن الطفل غير المميز تأمن المرأة جانبه، بخلاف الذي

---

(١) الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن، (٩/ ٣١٠).
(٢) الجصاص، أحكام القرآن، (٥/ ١٧٧).
(٣) الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل، (٣/ ٢٣٧).

قارب أوان البلوغ، زيادةً على أن صغره لا يؤثر في نفسيته، بحيث لا يبقى ذاكرًا لصورة النساء، مما لا يؤثر في سلوكه بعد البلوغ.

وإذا تأمل المتأمل كلمة (الطفل) يرى عدم الحاجة للنساء في هذا الوصف، وهذا يدل على براءة الطفل وسلامته من أثر الزينة التي تكشفها المرأة وتبديها له، وهذا ما رمز إليه ابن عاشور حين قال: "﴿لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ لم يطلعوا عليها، وهذا كناية عن خلو بالهم من شهوة النساء، وذلك ما قبل سن المراهقة"(١).

وأما ما يتعلق بالطفل المميز، فقد جاء التوجيه القرآني بحقه ضمن الآيات التي تتعلق بآداب الدخول على الوالدين، قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٨ وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٩﴾ [النور].

فهذه آدابٌ في الاستئذان موجهة للعبيد، والإماء، والأطفال الذين لم يبلغوا الحلم من الأحرار، إذ هناك ثلاثة أوقات ينبغي فيها مراعاة الأدب في الاستئذان، وهي: من قبل صلاة الفجر، ووقت الظهيرة، ومن بعد صلاة العشاء؛ إذ هي أحوال ربما انكشفت فيها عورة الرجل والمرأة، ولا يليق الدخول عليهما في تلك اللحظات، وقد سمى القرآن تلك الأوقات بالعورات؛ (لأن الإنسان يختل ستره فيها، والعورة: الخلل، ومن الأعور المختل العين)(٢).

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (١٨/ ٢١٢).
(٢) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، (٢/ ١٧٣).

ويؤخذ من هذا: أن الطفل لا ينبغي أن يقف مواقف الخلل، أو أن تظهر له المعايب منذ نعومة أظفاره؛ أخذًا به في التربية وتقويم السلوك، وتشير الآية ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [النور:٥٩] إلى أن ما سبق كان تدريبًا وتعليمًا للطفل، وترقيًا به في معارج الأدب، فإذا بلغ الحلم لا بد له من الاستئذان في كل وقت وحين، ولا يكون هذا أدبًا جديدًا بالنسبة له، فقد سبق له أن تأهل لمثل ذلك، قال النسفي: (والمعنى أن الأطفال مأذون لهم في الدخول بغير إذن، إلا في العورات الثلاث، فإذا اعتاد الأطفال ذلك، ثم بلغوا بالاحتلام أو بالسن، وجب أن يفطموا عن تلك العادة، ويحملوا على أن يستأذنوا في جميع الأوقات، كالرجال الكبار الذين لم يعتادوا الدخول عليكم إلا بإذن، والناس عن هذا غافلون، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ثلاث آيات جحدهن الناس: الإذن كله، وقوله: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات:١٣]، ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ﴾ [النساء:٨](١).

وعلى هذا، فإن التوجيهات القرآنية قد أعطت للطفل المميز وغير المميز الإرشاد، الذي يكسبه التوازن في المجال النفسي والخلقي، ويحول بينه وبين الانحراف في الشخصية والسلوك.

* * *

---

(١) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل (٢/ ١٧٤).

الخاتمة

الحمد الله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، فبعد هذا العرض لموضوع الرحمة في القرآن «الطفل أنموذجًا، أود أن أعرض لأهم النتائج، وأبرز الجوانب التي تناولها هذا البحث، وهي:

أولًا: رفع القرآن الكريم من شأن الطفل، وبين أنه نعمة من نعم الله ﷻ تستحق أن يشكر عليها ﷻ.

ثانيًا: من رحمة القرآن الكريم بالطفل أن راعى إنسانيته وفاعليته في الوجود، فحذر من قتل الأطفال ووأد البنات، وفرض له حقًّا في العيش والحياة، ورغّب في المولود الأنثى، وأرشد إلى حفظ الطفولة من الضياع، ووجه إلى الحفاظ على مواهب الطفل وتعزيزها والعناية بها.

ثالثًا: إن ما أرشد إليه القرآن من حقوق للطفل أخذت به الهيئات الإنسانية، فأصدرت ميثاقًا لحقوق الطفل، تكفل حقه في الحياة والبقاء، واحترام رأيه، وتضافر الجهود من أجل المصلحة الفضلى له.

رابعًا: أرشد القرآن إلى ضرورة تعزيز الطموح للطفل، والابتعاد عن

الضغط النفسي الذي يحد من نشاطه وفاعليته، وأن التوازن النفسي أو الصّحة النفسية للطفل تكون من خلال المشاعر الإيجابية، التي تجعل الطفل في حالة استقرار نفسي.

خامسًا: راعى القرآن الكريم الحالة النفسية والجسدية للطفل رأفةً ورحمةً به، ورتب له الحقوق المادية والمعنوية، فراعاه يتيمًا، وراعاه مستضعفًا، وراعاه رضيعًا.

سادسًا: عني القرآن بتوجيه الطفل وتربيته، وشملت هذه التوجيهات: الطفل المميز وغير المميز؛ حمايةً له من الانحراف في الشخصية والسلوك.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

قائمة المصادر والمراجع:

١. الأزهري، محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، تحقيق: عبدالعظيم محمود، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، د. ط، د. ت.

٢. الآلوسي، أبو الفضل محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ط، د. ت.

٣. البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، دار المعرفة، بيروت، ط٥، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.

٤. البيضاوي، عبدالله بن عمر، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

٥. الجصاص، أحمد بن علي، أحكام القرآن، تحقيق، محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ط، د. ت.

٦. الجمل، سليمان بن عمر، الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، دار الفكر، بيروت، د. ط. د. ت.

٧. الجرجاني، علي بن محمد، التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ

٨. حسن، محمود السيد، روائع الإعجاز في القصص القرآني، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، د. ط، د. ت.

٩. ابن خالويه، الحسين بن أحمد، الحجة في القراءات السبعة، تحقيق: د. عبدالعال سالم مكرم، دار الشروق، بيروت، ط٤، ١٤٠١هـ.

١٠. الخفاجي، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر، حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي المسماة: عناية القاضي وكفاية الراضي، دار صادر، بيروت، د. ط، د. ت.

١١. الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر، مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان، بيروت، طبعة جديدة، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

١٢. رضا، محمد رشيد، تفسير القرآن العظيم المعروف بتفسير المنار، تعليق وتصحيح: سمير مصطفى رباب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.

١٣. الزبيدي، محمد المرتضى، تاج العروس، د. ط، د. ت.

١٤. الزجاج، إبراهيم بن السري، معاني القرآن وإعرابه، شرح وتعليق: د. عبدالجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

١٥. ابن زنجلة، عبدالرحمن بن محمد، حجة القراءات، تحقيق: سعد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.

١٦. الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق الرزاق المهدي، دار إحياء القرآن العربي، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.

١٧. السامرائي، فاضل، لمسات بيانية لسور القرآن، د. ن، د. ط، د. ت.

١٨. أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٤، ١٩٩٤م.

١٩. بنت الشاطئ، عائشة عبدالرحمن، التفسير البياني للقرآن الكريم، دار المعارف، القاهرة، د. ط، ١٩٧٣م.

٢٠. شقير، زينب محمود، رعاية المتفوقين والموهوبين والمبدعين، مكتبة النهضة، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٢م.

٢١. صوالحة، محمد أحمد، وحوامدة، مصطفى محمود، سيكولوجية التنشئة الاجتماعية (النظرية والتطبيق)، مكتبة الطلبة الجامعية، إربد، ط١، ٢٠١٠م.

٢٢. الطبري، محمد بن جعفر، جامع البيان في تأويل آي القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٩٩٩م.

٢٣. ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، د. ط، ١٩٨٤م.

٢٤. عبده، محمد تفسير القرآن العظيم المعروف بتفسير المنار، تعليق تصحيح: سمير مصطفى رباب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.

٢٥. العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر (٧٧٣-٨٥٢هـ)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، مراجعة (قصي محب الدين الخطيب)، دار الريان للتراث، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

٢٦. الغزالي، محمد بن محمد، المستصفى من علم الأصول، تحقيق: د. محمد سليمان الأشقر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.

٢٧. الفيومي، أحمد بن محمد المقري، المصباح المنير، المكتبة العلمية، بيروت، د. ط، د. ت.

٢٨. القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع الأحكام القرآن، تحقيق: عماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقية، القاهرة، د. ط، د. ت.

٢٩. قنديل، محمد، مدخل الرعاية الطفل، والأسرة، دار الفكر، عمان، د. ط، ٢٠٠٦م.

٣٠. ابن كثير، عماد الدين إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، دار الفيحاء، دمشق، ط١، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.

٣١. ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط١، د. ت.

٣٢. الناشف، هدى محمود، الأسرة وتربية الطفل، دار المسيرة، عمان،

ط١، ٢٠٠٧م.
٣٣. النسفي، عبدالله بن أحمد، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

- **الدوريات:**

١. عجين، علي إبراهيم، رعاية الموهوبين في السنة النبوية – ابن عباس نموذجًا، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، جامعة آل البيت، العدد الرابع، ذو الحجة ١٤٢٩هـ- كانون أول، ٢٠٠٨م.
٢. أبو شبهة، هناء يحيى، ملخص بحث (السنة النبوية وتوجيه المسلم إلى الصحة النفسية)، ضمن أعمال المؤتمر العلمي الأول للسنة النبوية (السنة النبوية في الدراسات المعاصرة)، جامعة اليرموك، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ٢٩ – ٣٠ ربيع الأول، ١٧ – ١٨ نيسان، ٢٠٠٧م.
٣. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ ١٩٩٠م، ١٢/ ٢٣٠.
٤. البخاري، ابو عبدالله محمد بن اسماعيل، صحيح البخاري، دار ابن كثير، بيروت، د.ط.، ١٤١٤هـ ١٩٩٣م.

* * *